شباب وشابات مصر الجديدة
أرض السُّوسنَّة بطريق مصر الإسكندريَّة الصَّحراوي
السَّبت ١٣ فبراير سنة ٢٠١٦م

الإفخارستيَّا سرّ القيامة

لقد تعهَّد كلٌّ واحد منَّا في يوم معموديَّته، بثلاثة تعهُّدات، أو تعهَّد إشبينه نيابة عنه، حتى يبلغ ليُدرك ما تعهَّد به.

التَّعهُّد الأوَّل: جحد الشيطان
"أجحدُك أيها الشيطان، وكلَّ أعمالك النَّجسة، وكلَّ جنودك الشِّريرة، وكلَّ شياطينك الرَّديئة، وكلَّ قوَّتك، وكلَّ عبادتك المرذولة، وكلَّ حيلك الرَّديئة والمضلَّة، وكلَّ جيشك، وكلَّ سُلطانك، وكلَّ بقيَّة نفاقك، أجحدُك أجحدُك أجحدُك.

التَّعهُّد الثَّاني: الاعتراف بالمسيح
"أعترفُ لك أيها المسيح إلهي، وبكلِّ نواميسك المخلِّصة، وكلِّ خدمتك المحيية، وكلِّ أعمالك المعطية الحياة".

التَّعهُّد الثَّالث: الإقرار بالإيمان
"أؤمن بإله واحد، الله الآب ضابط الكُل، وابنه الوحيد يسوع المسيح ربِّنا، والرُّوح القُدُس المحيي، وقيامة الجسد، والكنيسة الواحدة الوحيدة المقدَّسة الجامعة الرَّسوليَّة آمين".

وبعد أنْ خرجنا من المعموديَّة، ورُشمنا بالميرون المقدَّس، لبسنا إنساناً جديداً، فصرنا مسكناً للرُّوح القُدُس. «إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة» (٢كورنثوس ٥:١٧). وهذا الإنسان الجديد المولود في المعموديَّة، هو الذي سيرث الحياة الأبديَّة، إنْ التزم بما تعهَّد به، يوم ميلاده الثَّاني.

وعن هذه الخلقة الجديد في المعموديَّة، يقول القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م):
[إنَّ ربَّنا يسوع المسيح، لَمَّا ذاق الموت من أجل الجميع، بل وقام في اليَوم الثَّالث؛ قد صار بذلك "باكورةً للرَّاقدين"، وأصلاً للذين يُخلقون من جديد بواسطته للحياة، كبداية لطبيعة بشريَّة (جديدة) قد خَلعت عنها الفساد ...] (تفسير إشعياء ٢٦:١٩).

وعن سكنى المسيح فينا، يقول القدِّيس كيرلُّس الكبير أيضاً:
[لَمَّا صعد الابنُ الوحيد كلمة الله إلى هناك (أي السَّماء)، أرسل البارقليط كبديل له، والذي به يكون هو (أي المسيح) فينا] (عظة ٣٨ على إنجيل لوقا).

ولا يفوتنا أنَّ هذه التَّعهُّدات كلُّها، مرتبطة ببعضها ارتباطاً كاملاً. ولاحظوا أنَّ آخر إقراراتنا وتعهداتنا في يوم معموديَّتنا كان هو إيمانُنا بالكنيسة، والتي بدونها لا نستطيع أن نوفي بتعهُّداتنا وإقراراتنا.

وعلينا الآن أن نختار إقراراً واحداً من إقراراتنا، أو تعهُّداتنا التي تعهَّدنا بها، لنركز الحديث عنه، وهو الإقرار بـ "قيامة الجسد". فتعهُّدنا بقيامة الجسد، أي أنَّ أجسادنا ستقوم في اليَوم الأخير، هو الذي نظل منذ معموديتنا وحتى نهاية حياتنا، نردده كل يوم في صلاتنا، سواء في البيت أو في الكنيسة، وذلك حين نقول: "وننتظر قيامة الأموات، وحياة الدَّهر الآتي".

إنَّ تعهُّدنا بقيامة الجسد، هو تعهُّد مرتبطٌ حتماً باعترافنا بالمسيح الإله، أي باتحادنا به. فنقول في الكنيسة عن السيِّد المسيح: ''أنت هو حياتُنا كلِّنا، ورجاؤنا كلِّنا، وشفاؤنا كلِّنا، وخلاصُنا كلِّنا، وقيامتُنا كلِّنا''، تحقيقاً لقول الكتاب المقدَّس: «مدفونين معه في المعموديَّة التي فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كولوسي ٢:١٢). ويقول أيضاً: «أقامنا معه» (أفسُس ٢:٦). أي أنَّ الآب أقامنا مع المسيح.

وهكذا تُصبح قيامتنا، وانتظارُنا لقيامة الموتى، مرتبطين بالمسيح الذي هو حياتُنا وقيامتُنا. أي أنَّ قيامتَنا، تعتمد على إيماننا بقيامة المسيح، ليس من بين الأموات فحسب، بل وأيضاً قيامتنا نحن فيه، وبإيماننا بالثَّالوث القدُّوس الآب والابن والرُّوح القُدُس، وبالكنيسة. هذا هو الطَّريق لبلوغ الحياة الأبديَّة.

فهل المعموديَّة وحدها تكفي لبلوغ هذه الغاية، أي غاية قيامتنا في المسيح، بانتظار قيامة الموتى؟ إنَّ الإنسان الجديد الذي أخذناه في المعموديَّة، يحتاج إلى غذاء حقيقي لينمو ويتقوى، ليستطيع أن يواجه التَّجارب والضِّيقات التي تأتي عليه، والتي بدونها لا يرث حياة الأبد. فخطايانا التي نقترفُها كلَّ يوم، تُعيق نمو إنساننا الجديد، ومن ثمَّ نحتاج إلى دوام ثبات المسيح فينا، أو ثباتنا في المسيح حياتنا، لأنه هو الذي يحارب عنَّا، ويشفينا، كما سبق أن قُلنا عنه أنه هو شفاؤنا. فهو لا يغفر خطايانا فحسب، بل ويشفينا أيضاً، أي يستطيع وحده أن يقتلع أسباب خطايانا، وليس خطايانا فقط.

وهكذا نحتاج إلى دوام سُكنى المسيح فينا، لنكون دوماً مشابهين صورة الابن، فيحبُّنا الآب، حينما يرى فينا صورة ابنه. وهذا يكون باشتراكنا في سرّ جسد الرَّب ودمه الكريم، الذي يتحقَّق لنا في داخل الكنيسة، كأساس لرجاء القيامة الأبديَّة؟

ويوضح هذه الجزئيَّة تعليم للقدِّيس غريغوريوس النِّيسي (٣٣٥-٣٩٥م) فيقول:

[كما أنَّ خميرة صغيرة – بحسب قول الرَّسول (١كورنثوس ٥:٦) – تجعل العجين كلَّه مشابهاً لها، هكذا أيضاً هذا الجسد الذي جعله الله غير مائت، حينما يحلُّ داخل جسدنا، فإنه يحوِّله وينقله كلُّه إلى ذاته. فكما أنَّ العقار المهلك إذا امتزج بالتِّرياق الشَّافي فإن مزيج الاثنين يكون كلُّه غير ضار، هكذا أيضاً الجسد غير المائت حينما يحل في الذي يتناوله، فإنه يحوِّله بكامله إلى طبعه الخاص!] (العظة التَّعليميَّة الكُبرى ٣٧).

ويقول القدِّيس كيرلُّس الكبير أيضاً:

[لأنَّ المسيح هو أوَّل البشريَّة (الجديدة)، وأصلٌ وباكورة للذين تتغيَّر طبيعتهم بالرُّوح القُدُس إلى جدَّة الحياة. فهو منذ الآن ينقل إلى كلِّ الجنس البشري – بواسطة الشَّركة معه وبالنِّعمة – عدم فساد جسده وثبات لاهوته. ولَمَّا عَلِمَ ذلك بولس الإلهي، كَتَبَ قائلاً: «كما لبسنا صورة التُّرابي، لنلبس أيضاً صورة السَّماوي» (١كو ١٥:٤٩)] (في تجسُّد الوحيد).

إذاً؛ الإفخارستيَّا هي سرّ الحياة الأبديَّة، التي سنعيشها بعد القيامة في اليَوم الأخير، ولكنَّها حاضرة معنا منذ الآن. وهذا ما قاله السيِّد المسيح له المجد، عندما كان يشرح هذا السِّر: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله ἔχει (أي الآن في الزَّمن الحاضر) حياة أبديَّة، وأنا أقيمه في اليَوم الأخير (أي في المستقبل)» (يوحنَّا ٦:٥٤).

وهذا كلام مهم، لأنه يعني، أنَّ الذي لا يثبُت في المسيح في سرّ الإفخارستيَّا، لتصير له شركة قيامة فيه الآن، لن تكون له قيامة معه في اليَوم الأخير. أو بمعنى آخر، أنَّ الإفخارستيَّا تعطينا هنا حياة أبديَّة، تساوي حياة القيامة التي سننالُها في اليَوم الأخير.

لقد كان القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) أبو التَّقليد الكنسي، هو أوَّل من تكلَّم عن العلاقة بين الإفخارستيَّا والقيامة التي ننالها من شركتنا فيها، أي تناولنا منها، فيقول:

[كيف يقولون إنَّ هذا الجسد الذي اغتذى من جسد الرَّب ودمِه، يصير إلى الفساد ولا ينال الحياة؟ فليعدِلوا إذاً عن زعمهم أو ليكفُّوا عن تقديم (القرابين) المشار إليها].

بمعنى أنَّ الذين يُنكرون قيامة الأجساد، إمَّا أن يتوقَّفوا عن هذه الهرطقة ويرجعوا عنها، أو يتوقَّفوا تَماماً عن إقامة سرّ الإفخارستيَّا. ويكمِّل قائلاً:

[أمَّا نحن فإنَّ عقيدَتنا (بقيامة الأجساد) تتَّفق مع الإفخارستيَّا، والإفخارستيا بدورها تؤكِّد صحَّة عقيدتِنا؛ لأننا نقدِّم لله ممَّا له (أي الجسد والدَّم الإلهيَّين)، وهذا يتَّفق مع اعترافنا بالشَّركة والاتحاد بين الجسد والرُّوح. لأنه كما أنَّ الخُبز الذي من الأرض متى قَبِلَ استدعاء الله عليه لا يعود بعد خُبزاً ساذجاً بل يصير إفخارستيَّا مكوَّنة من شقَّين؛ الواحد أرضي والآخر سماوي، هكذا أجسادُنا أيضاً متى قبلت الإفخارستيَّا، فإنها لا تعود بعد قابلة للزَّوال، لأنه صار فيها رجاء القيامة الأبديَّة!] (ضدَّ الهرطقات ٤: ١٨: ٥).

وبسبب الارتباط الوثيق بين الإفخارستيَّا والقيامة، حرصت الكنيسة أن تكون إقامة الإفخارستيَّا في يوم الأحد، لأنه يوم الرَّب الذي صار بداية الخليقة الجديدة بقيامة ربِّنا من بين الأموات. ومن ثمَّ صار يوماً متميِّزاً بين أيام الأسبوع.

ويحكي سفر أعمال الرُّسُل (ص ٢٠)، عن اجتماع المؤمنين في ترواس[١] لكسر الخُبز (وهو أقدم اصطلاح للإفخارستيَّا)، في مساء يوم الأحد. وقد حضر الرَّسول بولس هذا المحفل، وألقى فيه خطاباً امتد إلى نصف اللَّيل، وفي أثناء حديثه، وقع شابٌّ من الطَّابق الثَّالث، فمات، فنزل بولس إليه وأقامه من الموت، ثمَّ صعد وكسر خبزاً، وواصل كلامه حتى الفجر، وتعزَّوا تعزية ليست بقليلة. إنها حادثة قيامة من الموت مع تقديم إفخارستيَّا في أوَّل الأسبوع وهو يوم أحد القيامة.

ومنذ العصر الرَّسولي، ارتبطت الإفخارستيَّا بيوم الأحد، حيث لَم تكن تُقام إفخارستيَّا في يوم آخر غير يوم الأحد، يوم عيد القيامة الأسبوعي. فلأنَّ الإفخارستيَّا هي سرّ القيامة، فكانت تُقام بصفتها تعييداً للقيامة في يوم الأحد، ليس كمُجرَّد تذكار تاريخي للقيامة، ولكن كاستحضار فعلي للجسد القائم من بين الأموات، وسط الجَماعة المُجتمعة حوله، فالمسيح القائم من الأموات يَحضر يوم الأحد بِهذا السرّ.

وهكذا نعرف من سفر أعمال الرُّسُل، أنَّ الكنيسة الأولى في أورشليم – وقد نشأت في وسط يهودي – بدأت منذ الوهلة الأولى، في تكريم وتقديس يوم الأحد كعيد جديد، باعتباره ''يوم القيامة''، أو ''يوم الرَّب''[٢]، أو ''أوَّل الأسبوع''[٣].

وتعبير ''يوم الرَّب'' يأتي في اليونانيَّة τῇ κυριακῇ ἡμέρᾳ أي: ''اليَوم الربَّاني'' أي المنسوب للرَّب، ويُقصد به يوم الأحد. وفي رسائل القدِّيس بولس الرَّسول، تُسمَّي الإفخارستيَّا باسم ''العشاء الرَّباني'' κυριακὸν δεῖπνον (١كورنثوس ١١: ٢٠)، والتي تُرجمت إلى ''عشاء الرَّب''، ولكنَّها في الأصل اليوناني ''العشاء الربَّاني''. فالعشاء الرَّباني، واليَوم الربَّاني، كانا مرتبطَين جداً في ذهن الكنيسة الأولَى. بمعنى أنه لا يُمكن تعييد يوم الأحد، بدون إقامة العشاء الرَّباني في اليَوم الرَّباني، ولا يُمكن إقامة العشاء الرَّباني في يومٍ آخر غير اليَوم الرَّباني الذي هو يوم القيامة.

وبسبب اقتران يوم الرَّب بالفرح والقيامة. لذلك تردِّد الكنيسة فيه المرد: ''هذا هو **اليَوم** الذي صنعه الرَّب، فلنفرح ولنبتهج فيه ...''.

وكلمة ''اليَّوم'' – بتعريف الألف واللاَّم – تعني يوماً محدَّداً بذاته. فاليَّوم الذي صنعه الرَّب للفَّرح والبهجة في الكنيسة، هو يوم فرح الخلاص من حُكم الموت وقبضته، بقيامة الرَّب من بين الأموات. لذلك اختارت الكنيسة هذا المزمور ليكون هو مزمور إنجيل قُدَّاس عيد القيامة.

هذا هو اليَّوم الذي لن تغرُب شمسه إلى الأبد. إنه يوم القيامة، وشمسُه هو المسيح له المجد «شمس البر والشِّفاء في أجنحتها»

١– هي نفسها مدينة طروادة القديمة، والتي تقع شمال غرب تركيا.
٢– رؤيا ١: ١٠
٣– أعمال ٢٠: ٧

(ملاخي ٤: ٢). أشرقت هذه الشَّمس في صبيحة أحد القيامة، و لم تغرُب بعد، ولن تغرُب إلى الأبد. لذلك سُمِّي هذا اليَوم، باسم ''اليَوم الثَّامن''، وهو اصطلاح يتكرَّر كثيراً. فما هو معنى ذلك؟ معروف أنَّ الأسبوع سبعة أيام، الأحد هو اليَوم الأوَّل من الأسبوع، والاثنين هو الثَّاني ... والسَّبت هو اليَوم السَّابع. فما هو معنى اليوم الثَّامن؟

هذا شيءٌ جديد، خارج الدَّورة الزَّمنيَّة. إنه اليَّوم الجديد الذي صنعه الرَّب، وهو اليَوم المعبَّر عنه في سفر الرؤيا، بأنَّ المدينة لا تحتاج إلى الشَّمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها، لأنَّ مجدَ الله قد أنارها، والخروف سراجُها (رؤيا ٢١: ٢٣). فالمسيح في أورشليم السَّمائيَّة هو شمس البر، شمس اليَوم الأبدي الذي صنعه الرَّب. ولاحظوا هنا أنَّ نور الأبديَّة، هو نفسه مجدُ الله.

لقد ابتدأ هذا اليَوم، فجر أحد القيامة، وإلَى الآن لَم يَحدث له مساء، ولن يكون له مساء إلَى أبد الآبدين. ففي هذا اليَوم، وفي القُدَّاس الإلهي، ينكشف السِّتار الحاجز بين العالَم الحاضر، والحياة الأُخرى، بين الأرض والسَّماء، بين كنيسة الأرض وكنيسة السَّماء. فالقُدَّاس الإلهي هو رفع السِّتار الحاجز بين الزَّمن والأبديَّة، إذ به ندخل إلَى هذا اليَوم، الذي ليس له مساء.

واضحٌ هنا تماماً، الرِّباط الوثيق بين الإفخارستيَّا والقيامة، ذلك لأنَّ الإفخارستيَّا هي سرُّ الحياة الأُخرى، حياةُ القيامة من الموت، والتي سنالها في اليَوم الأخير، ولكنَّها تعطى لنا منذ الآن. أي أنَّ هذه الحياة الأبديَّة المستقبلة، تجعلها الإفخارستيَّا حاضرة الآن، وذلك مثل قول الرَّب: «تأتي ساعة، وهي الآن» (يوحنَّا ٤:٢٣).

ولأنَّ الإفخارستيَّا تمنحنا الحياة الدَّائمة إلى الأبد منذ الآن، فقد دعاها آباء الكنيسة باسم ''ترياق الخلود''، أو ''ترياق الحياة''[٤]، أي الدَّواء الذي نتناوله، فلا نموت إلى الأبد. فترياق الخلود، هو دواء الحياة، الذي أنقذنا من سُم الحيَّة. وهي نفس أسماء الإفخارستيَّا عند القدِّيس كيرلُّس الكبير، حيث يدعوها: ''بذرة الخلود'' σπέρμα τῆς ἀθανασίας[٥] – ''البذرة المحيية'' σπέρμα ζωοποιόν[٦] – ''زاد الخُلود'' ἐφόδιον ἀθανασίας[٧].

يقول القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي الشَّهيد (٣٥-١٠٧م):

[حينما تجتمعون معاً في إيمان واحد في المسيح يسوع ... في طاعة الأُسقُف والكهنة وفي وحدة الرأي، تكسرون الخُبز الواحد الذي هو ترياق الخلود φαρμάκον ἀθανασίας ودواءٌ، لئلا نَموت، بل لنحيا في يسوع المسيح إلى الأبد][٨].

وفي قُدَّاس القدِّيس سرابيون الذي وصلنا في الخولاجي المعروف باسمه[٩]، والذي كانت تُصلِّي به كنيسة الإسكندريَّة منذ قرونها الأولى، نقرأ صيغة استدعاء أُقنوم الابن على القرابين، فيقول النَّص:

''يا إله الحق[١٠]، فليأت كلمتُك القدُّوس على هذا الخُبز، لكي يصير الخُبز جسد الكلمة. وعلى هذه الكأس، لكي يصير الكأس دم الحق. واجعله دواء الحياة φάρμακον ζωῆς لكي يتناول منه كلُّ المشتركين شفاءً لكلِّ مرض، ونوالاً للقوَّة لكلِّ نمو وفضيلة، وليس للدَّينونة[١١]، ولا للازدراء، ولا للخزي يا إلهَ الحق''[١٢].

٤- كما عند القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) في كتابه: ضدَّ الهرطقات ٣:١٩:١

٥- تفسير يوحنَّا ٦:٥٤ *PG* 73,581C

٦- تفسير لوقا ٢٢:١٩ *PG* 72,912A

٧- عظة ليوم خميس العهد منسوبة للبابا ثاؤفيلس. ولكن يظن أنها لكيرلُّس الكبير لما كان شماساً عند خاله ثاؤفيلس *PG* 77,1016

(٨) إلى أفسس ٢٠: ٢.

٩- هذا الخولاجي المهم، تعود نساخته إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وتمَّ اكتشافه في أحد أديرة جبل آثوس، في سنة ١٨٩٤م.

١٠- مزمور ٣٠:٦

١١- كولوسي ١:١١-٣٤

١٢- مزمور ٣٠:٦

ويستعمل القدِّيس غريغوريوس النِّيسي (٣٣٥-٣٩٥م) أيضاً كلمة ''التِرياق'' فيقول:

[ما هو التِرياق الحقيقي، سوى هذا الجسد المُمجَّد الذي استعلن أقوى من الموت][١٣].

ويقول القديس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) عن الإفخارستيَّا:
[كيف يَموت مَنْ كان طعامه الحياة؟!][١٤] .

هذا هو بعينه ما قال السيِّد الرَّب: «أنا هو القيامة والحياة، مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل مَنْ كان حيّاً وآمن بي فلن يَموت إلَى الأبد» (يوحنَّا ١١:٢٥-٢٦). «هذا هو الخُبز النَّازل من السَّماء، لكي يأكل منه الإنسان ولا يَموت» (يوحنَّا ٦:٥٠). «أنا هو الخُبز الحي الذي نزل من السَّماء. إن أكل أحدٌ من هذا الخُبز، يحيا إلَى الأبد» (يوحنَّا ٦:٥١).

وجدير بالذِّكر، أنه عند بدء كلمات التَّأسيس في القُدَّاس الإلهي، أي عند قول الكاهن: ''ووضع لنا هذا السِّر العظيم الذي للتَّقوى ... الخ''، يوقد شمامسة المذبح، شموعاً، يحملونها في أيديهم، لكي تعبِّر بنورها، أنَّ كلمات الآلام والصَّليب والموت، التي يقولها الكاهن في هذه اللَّحظات، قد أفضَت في النِّهاية إلى إشراقة نور القيامة من بين الأموات، فأنارت الحياة. فالشَّمعة الموقدة عند المذبح، في صلاة الإفخارستيَّا، هي رمزٌ لنور قيامة المسيح، الذي بدَّد ظُلمة الموت، وأنار الحياة والخلود[١٥].

ولقد جرت العادة أيضاً – ربما ضمن تسليم شفاهي لم تذكره الخولاجيَّات أو الكُتُب الطَّقسيَّة – أنه في نهاية القُدَّاس الإلهي، وأثناء ترديد الكاهن للاعتراف الأخير، أو المرد الذي يعقبه والذي يقوله الشَّماس، أنَّ الشمَّاس يمسك في يده اليمين شمعة، وفي يده اليسار صليباً، وبين الشَّمعة والصَّليب لفافة مثلَّثة الشَّكل، تربط بينهما، معلناً بهذا عمل موت المسيح (والذي يرمز إليه الصَّليب المرفوع) وقيامته (والتي يرمز إليها نور الشَّمعة الموقدة) في تكميل الأسرار المقدَّسة، وأنَّ الكاهن يعترف بأنَّ الذَّبيحة المقدَّسة التي يقرُّ بالاعتراف أمامها، هي المسيح الذي تجسَّد ومات وقام من بين الأموات.

١٣- العظة التَّعليمية الكُبرى ٣٧ *PG* 45, 96

١٤- عظة ١٨ على مزمور ١١٥

١٥- وهنا أكرِّر القول، بأنَّ استخدام الإضاءة الكهربائيَّة على المذبح، يُفقد نور الشُّموع مغزاها ومعناها الرُّوحي. فالنُّور الطَّقسي سواء في الهيكل أو في صحن الكنيسة هو نور الشُّموع والقناديل.